

سقراط والعالم الاسلامي

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لهجت السنة الأثينيين باسم حكيم لا كالحكام ، وفيلسوف لا كالفلاسفة . لا يتفق شكله وزيه مع جلال الحكمة ، ولا يتلاءم أصله ونسبه مع عظمة الفلسفة . فقد كان أفطس الأنف ، مرسل الشعر في غير انتظام ، حافي القدمين ، حاسر الرأس ، مرتدياً كساء غليظاً . أبوه نقاش وأمه قابلة : مهنتان ليس لهما من الشرف نصيب كبير^(١) وهو مع هذا يناقض أهل أثينا ، وبين خطاهم ، ويسفه أحلامهم ، دون أن يدعى الاثيان بمجديد ، أو تعليم الناس ما لم يعرفوه . أجل لم يك هذا الفيلسوف رئيس مدرسة يجتمع فيها الطلاب ، ولا صاحب نظرية محدودة يتدارسها الأتباع والتلاميذ . بل كان يبعث حكته في الأسواق والطرقات ، ويلقي درسه أمام الحوانيت وفي ملبس الشبان . وما كان هذا الدرس وتلك الحكمة إلا لإعلانه دائماً أنه لا يعرف شيئاً ، وترديده لهذه الجملة المأثورة : « اعرف نفسك بنفسك »^(٢) . ذلكم الحكيم الغريب شكله ، القبيح منظره ، الشاذة تعاليمه وطريقته ، هو سقراط الذي نهج بالفلسفة منهجاً جديداً ، وكان على رأس طوائف فلسفية متعددة ومتباينة^(٣) بين فلاسفة الأغريق ثلاثة أسماء لا يكاد الانسان يذكر واحداً منها إلا وحضر بذهنه الآخرون . ومن ذا الذي يلفظ اسم أفلاطون دون أن يخطر بباله أنه كان تلميذاً لسقراط وأستاذاً لأرسطو ؟ أو من ذا الذي يتكلم عن سقراط ولا يلحظ تلميذه أفلاطون وتلميذ تلميذه أرسطو ؟ وفي الحق إن هؤلاء الحكماء الثلاثة بكل بعضهم بعضاً : تضافروا على تكوين نظرية مشتركة نشأت بين يدي الأول ، وترعرعت لدى الثاني ، وأخذت شكلها الكامل عند الأخير . فكلهم أزل الفلسفة من السماء الى الأرض وعنى بالانسان في تفكيره وسلوكه أكثر من عنايته بالشؤون

الاسلامية بأنها زخات طاغية مضطرب الذهن ، تكون في مجموعها برنامجاً إصلاحياً شاملاً ، وترى في مجموعها إلى تحقيق غايات لا ريب في حكمتها وسموها

يقول العلامة دوزي : « لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يجب أن يصورها الرواة السنيون الذين اعتادوا أن يقدموا الينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لاصورة حقة » ثم يقول : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذي سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة » ثم يشرح رأيه بمد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة ، ويحدثنا بمطف عن تواضع الحاكم وتشفه^(١) ويقول ميلر بمد أن يلخص قوانين الحاكم الاجتماعية ، « إن هذه التصرفات ليست كلها نم عن الحماقة ؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله ، فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ، ولا سبياً ونحن نراها في نواحي أخرى سليمة معقولة . وكل ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة ، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب ؛ وإنه ليكون من المدهش اليوم أن نستطيع أن نحمل رموز هذه المعضلة الشاملة » ثم يقول : « وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه إما باطني متمصب ، توم في نفسه الاغراق والالوهية ، وإما أمير ذكي بارع في تاريخ أسرته ومذهبا ، واعتقد انه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحترقهم ويصنعمهم كالشمع طوع إرادته . وربما كان يجمع في طبيعته المتناقضة بين شي من هذا وشي من ذلك . وربما لا يستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر »^(٢)

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة ، ولاتلك العقلية المحرفة التي تقدمها الينا الرواية ؛ ولم تكن أعماله وأحكامه ، كما صورت على كرم المصور ، مزيجاً من النزعات والأهواء الجنونية ؛ إنما كان الحاكم لفر عصره ، وكان ذهناً بعيد النور ، وافر الابتكار ؛ وكان عقلية تسمو على مجتمعا وتتقدم عصرها بمراحل . وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تنبأ في التاريخ مكانها الحق

محمد هببر الله عناه

الحامى

تم البعث

النقل ممنوع

(١) Bréhier, *Histoire de la philosophie*, I, 89 — 60.

(٢) Rivaud, *Les grands courants de la pensée antique*,

72 — 73.

(٣) Bréhier, *op. cit.*, I, 89.

(١) Dozy : *Essai sur l'islamisme* P. 287 & 288

(٢) Müller; *ibid*; P. 630

الكشف عنها اليوم

في سقراط ظاهرتان هامتان : حياته أو إن شئت شخصيته الغربية ، وطريقته وتعاليمه ؛ وقد يكون زيوع صوته راجعاً الى الأولى أكثر من رجوعه الى الثانية . فكثير من الناس يعرف سقراط الزاهد المتكشف الذي أعرض عن ملاذ الدنيا ، فلم يشرب نبيذاً قط ، ولم يتناول طعاماً شهياً ؛ وكثير منهم يعرف سقراط القوي العزيمة الذي لا يخضع لارادة غير ارادة الحق ، مهما عظم شأنها ؛ وكثير منهم يعرف سقراط البطل الذي ضحى بنفسه آمناً مطمئناً في سبيل رأيه وعقيدته . كل هؤلاء يعرفون ذلك من سقراط ، وإن خفيت عليهم آراؤه ونظرياته . هذه الظاهرة الهامة في الفيلسوف الأثيني هي التي بهرت السليين بوجه خاص ؛ فراعهم منه شخصه أكثر مما راعهم علمه ودرسه . ولما إذا رجعنا إلى كتب التراجم العربية وجدنا أنها لا تكاد تدرس إلا حياته وقصة موته . فإبن النديم الذي ترجم له في اختصار بلغ حد الأخلال اكتفى بأن قال إنه « كان زاهداً خطيباً حكيماً قتله اليونانيون لأنه خالفهم »^(١) ، والقفطي الذي وقف عليه نحو تسع صفحات من القطع الكبير بين في تفصيل كيف حوكم هذا التهم البري ، وكيف نفذ فيه حكم الاعدام^(٢) . وابن أبي أصيبعة يشارك القفطي في ترجمته المطولة ، ويضم إليها بعض حكم يمزوها إلى سقراط^(٣) . إلا أن هذه التراجم في مجملها تحوى أخطاء يجدر بنا أن نشير إلى بعضها . فمثلاً زعم ابن النديم ومن جاء بعده أن سقراط ألف مقالة في السياسة ، ورسالة في السيرة الجلية ؛ والحق أن هذا الفيلسوف لم يكتب شيئاً قط^(٤) . ومن الغريب أن ابن أبي أصيبعة قد تنبه إلى هذا ولاحظ أن سقراط « لم يصنف كتاباً ، ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبتته في قرطاس ، وإنما كان يلقيهم علمه تلقيناً لا غير »^(٥) ؛ ولكنه عاد فوقع فيما وقع فيه من قبله من الخطأ^(٦) . ويكاد يجمع أصحاب

الطبيعية في نظامها وتقلها . وكلهم يبحث عن الفكرة *Idee* ou le concept في طريق تكوينها ، وأصل نشأتها ، ودرجة وجودها وبذا كانوا جميعاً أساندة « الفلسفة الفكرية » *la philosophie conceptuelle* التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الدراسات النظرية ، والتي لا تزال عماد البحث العقلي الى اليوم^(١)

لم يقف نفوذ سقراط عند الشعبة الأفلاطونية والأرسطوية ، بل تعداها الى مدارس أخرى كانت من أشد الناس عداوة لأفلاطون وأرسطو . فاليجاريك تلاميذ أقليد الميجاري *Euclide de Mégare* ، والسينيك أتباع أنطستين *Antisthènes* يصمدون الى سقراط ، وإن كانوا من أول من خرج على المنطق ، وشكك الناس في الحقيقة وكيفية الوصول إليها . فهم بهذا من أكبر خصوم « الفلسفة الفكرية » التي تحدثنا عنها . والأخلاق لدى أصحاب الرواق تعتمد على أساس سقراطي واضح ؛ فالرواقيون يرون - كما يرى سقراط - أن الحسن ماأملته الارادة ، وما تنفق مع المحافظة الشخصية . وعلى هذا يجب أن تؤسس الأخلاق لديهم جميعاً على دعامة من العزيمة والشعور الفردي^(٢) . وطريقة اللأدرين في الحوار والنائشة متأثرة قطعاً بطريقة سقراط ومن قبله من السوفسطائيين^(٣)

ذلكم هو سقراط في العالم الأخرى ؛ وبودنا أن نعرف على أية صورة وصل الى العالم العربي ، وهل وجد بين العرب أنصاراً وأتباعاً مثلنا وجد بين الأفرقي ، وهل عني السلون بشأنه عنايتهم بأفلاطون وأرسطو ؟ مما لا شك فيه أن هذين الأخيرين ملكا على العرب الجانب الأعظم من تفكيرهم الفلسفي ، وكانا موضع شغل الباحثين منهم ، ولعل ذلك راجع الى أن قدرا كبيراً من كتبهما ترجم الى العربية ، فساعد على دراستهما دراسة مستفيضة . أما سقراط فلم ينفذ الى الفكر الاسلامي إلا بواسطة ما رواه على لسانه أفلاطون وأرسطو وبعض المؤرخين أمثال بلوتارك . بيد أن شيخ أئينا هذا ، ورسول « أبولون » ، وترجمان وحى « دلف »^(٤) قد أثر في نواح عربية هامة غامضة ؛ وسنحاول

(١) Ross, *Aristotle's Metaphysics*, I, XXX III et suiv(٢) Bréhier, *op. cit.*, I, 261 et suiv.(٣) Janet. *Histoire de la philosophie*. 413-14.(٤) Rivaud, *op. cit.*, 179-180.(٥) نحن نشير هنا الى ما رواه أفلاطون من أن سقراط كان ميموت « أبولون » وترجمان الآلهة : voir Platon, *Euthyphron*, 3 b, Alcibiade, 103-105e

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٤٥

(٢) القفطي ، تاريخ الحكماء ، ١٩٧ - ٢٠٦

(٣) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ٤٣ ، ٤٩

(٤) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٤٥ - ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء

٤٩ ، ١

(٥) ابن أبي أصيبعة ، المصدر نفسه ، ٤٣

(٦) المصدر نفسه ، ٤٩

أما تعاليم سقراط ، وإن بدت ثانوية في نظر مفكرى الاسلام ، فإنها لم تكن مجهولة لديهم . وقد اختص الشهرستاني بإيراد أكبر قدر منها في كتابه الملل والنحل . فهو يمرض أولاً آراء سقراط الدينية والميتافيزيقية ، مبيناً ما قاله في صفات البارى وذاته ، ومفيضاً في ذلك بدرجة محسوسة^(١) . ثم يجاوز هذا الى الكلام عن مذهب سقراط في المبادئ والملل^(٢) ، وفي أولية النفوس الانسانية ووجودها السابق لوجود الأبدان^(٣) . وهذه الآراء المنسوبة إلى سقراط قد جاءت بنصها على لسان أفلاطون ؛ على أن العرب أنفسهم لم يستقوها إلا من مؤلفات الأخير . وهنا تعترضنا مشكلة تاريخية مشهورة ، ألا وهي أنا إن سلنا بأن كل مارواه أفلاطون باسم أستاذه من عمل الثاني لم يبق للأول شيء وعلى العكس من ذلك إن كانت مؤلفات التلميذ تترجم عن رأيه الخاص فإنا لانكاد نجد لسقراط نظرية مستقلة ؛ وقد كنا نأمل أن نحل هذه العقدة التي حار فيها المؤرخون المعاصرون على ضوء المصادر الاسلامية ، فلم نظفر فيها بما ينفع القلة . وفي رأينا أن سقراط لم يمن بتكوين نظريات فلسفية مفصلة ، وكل مهمته أنه أشار إلى أفكار عامة تولاهها أفلاطون من بعده بالدرس والتحليل .

بيد أن لسقراط عملاً آخر شخصياً لا ينكره عليه أحد ؛ وهو طريقته الجدلية المبنية على الاستنباط والتشكيك . بهذه الطريقة اشتهر ، وبها تمكن من قهر جماعة السوفسطائيين ، وبواسطتها أصلح كثيراً من الأخطاء الشائعة ، ومهد السبيل لتكوين الأفكار العامة . وقد وصلت هذه الطريقة إلى العرب — كما وصلت إلى المحدثين — في ثنايا كتب أرسطو وأفلاطون ؛ ولفلاسفة الاسلام في شرحها ومناقشتها أبحاث مختلفة^(٤) ؛ فسقراط المثل الأعلى في التوضيح ، وسقراط الباحث النظري ، وسقراط المناظر القوى الحجة قد وجد في العالم العربى أتباعاً وتلاميذ ، بل أنصاراً ومحبين

ابراهيم بيومي صرصور
دكتور في الآداب والفلسفة

التراجيم هؤلاء على أن سقراط عاش ثمانين سنة أو جاوزها إلى مائة ، مع أنه توفى عن إحدى وسبعين سنة^(١) . ويروى القفطى عن بعضهم أن سقراط كان شامياً ، وهذا خطأ واضح ، فإن هذا الحكيم أثبت في نشأته ونسبه ، ويمثل أول خطوة في الحركة الفلسفية التي دامت في أئتنا نحو قرن أو يزيد^(٢) . ومهما يكن من شيء فإنا إن غضضنا الطرف عن هذه الهفوات الصغيرة وجدنا أن هؤلاء المؤلفين وصفوا حياة سقراط في جزئياتها الهامة لم تلغيت هذه الحياة العظيمة نظر مؤرخى العرب وحدهم ، بل كان لها أثر بين على طائفة من الفلاسفة والملاء . فالكندى بلغ به حبه للفيلسوف الأغرقي وإعجاب به أن كتب فيه عدة مؤلفات ، منها : رسالة في خبر فضيلة سقراط ، رسالة في أفاظه ، رسالة فيما جرى بينه وبين الحرائين ، رسالة في موته^(٣) . وهناك تشابه بين سقراط والكندى لن يفوتنا أن ننبه اليه ؛ فلئن كان الأول قد سهد « للفلسفة الفكرية » في العالم الأغرقي ووضحها بأمشلة من الأخلاق والحياة الدارجة ، فإن الثاني هو أول من أتجه نحو الدراسات الفلسفية في العالم العربى^(٤) . وإخوان الصفاء يصعدون بسقراط الى درجة النبوة ، ويعقدون لموته فصلاً قياً في رسائلهم ؛ وعلمهم استقوه مما كتبه الكندى من قبل^(٥) . وبرى الرازى طبيب الاسلام الأكبر وفيلسوفه الذى لم يدرس بعد الدرس اللائق به أن سقراط هو الفيلسوف الحق ، ويمارض به أتباع أرسطو من زملائه ومعاصريه المسلمين^(٦) .

ومعروف ما بين الرازى وإخوان الصفاء من صلات في العقيدة والآراء الفلسفية والسياسية . فسقراط إذاً أبناء وتلاميذ في الديار الاسلامية ، كما كان له من قبل في البلاد الأغرقيية ؛ وهؤلاء التلاميذ ألصق بشعبة الاسماعيلية والتصوفة الذين شاءوا أن يتهجوا نهج حكيم أئتنا في زهده وتقشفه ، وأن يتفانوا تقانيه في نصرة مبادئهم

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٤٥ — ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء

٤٧ ، ١

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ١٩٨

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ٢٦٠

(٤) Madkour, La place d'al Fārābī, p. 8-9.

(٥) اخوان الصفا ، رسائل ، ١٧ ، ٩٩ — ١٠٠ (طبعة مصر)

(٦) ماسينيو ، محاضرات غير مطبوعة بالكوليج دي فرانس ، ١٩٣٣

(١) الشهرستاني ، الملل والنحل (طبعة مصر بهامش الفصل لابن

حزم) (III) ٢٧ — ٣١

(٢) المصدر نفسه ، ٣١ — ٣٢

(٣) المصدر نفسه ، ٣٢ — ٣٣

(٤) Madkour, L'organon d'Aristote..., p. 133.